تطور الحركة العقلية

فى شمال أفريقية

للكاتب المستشرق جاستون بوتول

نشرت مجلة « الأخبار الأدبية » (النوفيل لتريز) فى عددها الأخير مقالاً للكاتب المستشرق جاستون بوتول عن الحركة العقلية فى شمال أفريقية هذه ترجمته :

كلما أوغلنا فى التاريخ أدركنا أن تونس أو بعبارة أخرى أن تونس — قرطاجنة المعقدة كانت دائماً عقل أفريقية الشمالية. وإنه لقدر غريب : قدر هذه المدينة ، التى كأنها سارية القارة ، والتى هى الحد الفاصل بين شرق البحر الأبيض المتوسط وبين غربه ؛ ولقد كانت دائماً طريق الفتوح العظيمة ، كما كانت مجمع الطرق التجارية الكبرى ؛ وهى أقصى بلد فى شمال أفريقية وأقربها إلى أوربا ، ولكنها أقربها إلى الشرق أيضاً ؛ ثم هى أعرقها فى الطابع الأفريقى ، لأن السهول الصحراوية التى تفصلها عن البحر فى الجهات الأخرى حواجز عالية ، تمتد بلا انقطاع إلى تونس ؛ وأخيراً هى المدينة التى كانت تلتقى فيها النزعات العقلية وتمتزج من جميع الأنحاء

كانت قرطاجنة فى الوقت الذى كانت روما تصارع فيه ما حولها من الظلمات ، قد قامت برسالة عظيمة فى المدنية ، واكتشفت غرب البحر الأبيض والبرتغال وساحل أفريقية الغربى . ثم غدت قرطاجنة بعد الحروب البونيقية المدينة الثانية فى العالم الرومانى ؛ ولما أتمت مراحلها الثلاث أعنى البونيقية ، والرومانية ، ثم النصرانية ، دخلت تونس فى مرحلتها الاسلامية ، وسرعان ما تفوقت على القيروان وغدت مرة أخرى أهم مراكز الحركة العقلية فى المغرب . ولم يكسفها قط بهاء فاس المحدث ، ولبثت تونس هى المركز الذى تزدهر فيه العلوم والفلسفة العربية لآخر مرة ، وكان ابن خلدون ، فى فجر الأحياء ، آخر ثمارها العظيمة

أما اليوم فان الموقف أكثر تعقداً ؛ وعلى رغم ازدهار جامعة الجزائر ، ونجاح معهد الدراسات العالية المراكشى فى رباط وتقدمه نحو التحول الى شبه جامعة ، فان تونس تبقى مركز التفكير الاسلامى فى شمال افريقية . ويكفى لتوضيح خطر هذا الدور أن نقول إن المسلمين يبلغون اليوم فى المغرب أكثر من اثنى عشر مليونا ، ولكن لا توجد بقعة أخرى غير تونس يزداد عددهم فيها نحو خمسين ألفا كل عام

ويرجع هذا النفوذ الى عاملين : الأول أنه يوجد فى تونس أهم وأقدم جامعة عربية ، والثانى أنه يوجد بها أكبر عدد من صفوة المسلمين الذين تلقوا الثقافة الفرنسية . وصحف تونس العربية ، والصحفيون التونسيون هم الذين يوجهون الحركات السياسية والعقلية فى الجزائر ومراكش . ومن تونس تخرج الأزياء ، وتخرج القصص والغناء ، وفيها تتألف الفرق التمثيلية أو الموسيقية التى تجوس خلال المغرب

ويضاف الى نفوذ جامعة الزيتونة القديمة ، التى تأخذ اليوم بأسباب التجديد ، نفوذ « الخلدونية » وهى مركز للدراسات التاريخية والعلمية ؛ وقد أسست منذ ثلاثين عاماً على يد بعض التونسيين ، وكلية الصادقى ، وهى معهد غريب تدرس فيه العلوم الحديثة واللغتان الفرنسية والعربية . وقد عقد فى اكتوبر الماضى مؤتمر من الطلبة المسلمين فى شمال افريقية

وفى ذلك ما يوضح الدور الهام الذى تؤديه تونس فى المسائل الاجتماعية التى تعرض فى شمال افريقية . ومن العسير أن نحدد

أنفس الكتب . وابن رشد الجد له كتاب البيان والتحصيل فى الفقه ستة عشر مجلداً . وقد ضمن لقارئه الاجتهاد . وابن رشد الحفيد الفيلسوف كان فى المغرب بمنزلة الرازى فى المشرق

ثم تكلم عن محنة ابن رشد فى دولة الموحدين وقال : والسلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان من العلماء ، كان يحفظ كتاب المحلى لابن حزم — سأل بعض الحاضرين عن رسالة صلاح الدين الى يعقوب بن يوسف فقال هى فى كتاب أبى شامة . وكان أبو شامة حافظاً وقارئاً ونحوياً وعالماً فى الأصول والفروع . ويشبهه فى هذا أبو عمرو الدانى . قال بعض الحاضرين هل كانا متعاصرين ؟ قال لا ، أبو شامة توفى سنة ٦٢٢ والدانى توفى سنة ٤٤٤ . الخ الخ . ولعلنا نعود فندون عنه مجلساً آخر

عبد الوهاب عزام

نزعات الأجيال الفتية فى هذه البلاد ؛ ويختلف عدد الشباب المثقف وتوزيعه كثيراً فى هذه المناطق ؛ وأظهر هذه النزعات وأشدها تعرضاً للخلافات الظاهرة هى النزعة السياسية ، ولكن هذه الخلافات ترجع دائماً الى ظروف السياسة المحلية ، فهى مؤقتة فى الواقع ، فمثلاً كان التونسيون يشكون من إقصائهم عن بعض الادارات ، فلما تقرر منذ أشهر أن يسمح لهم بدخولها انتهت هذه الشكوى

اما النتائج الثابتة ، فهى نتائج التطور العقلى ؛ وهى أهمها أيضاً ، لأنها تتعلق بالمستقبل ، ولا تتقدم إلا ببطء ، ولا يمكن تعديلها أو توجيهها بقوانين الشرع ؛ وقد يستطيع المشرع أن ينتهز بعض الفرص السانحة فى حرص وحذر ، ولكن الاختيار النهائى يبقى لأصحاب الشأن أنفسهم

ويوجد فى فاس ، كما يوجد فى الجزائر وقسطنطينة شباب يتلمس ويتساءل . وقد عفت التقاليد التى كانت تسمح للشباب بأن يندمجوا فى الحياة بسهولة ؛ وأضحت لا تلائم الحياة الحديثة ، وعرضت حاجات جديدة ومطالب جديدة ؛ ولكن الشمار الجديد هو أن تبحث وتجد . ويتجه معظم الشباب على الأخص بانظارهم الى تونس ، لأنهم يعرفون أنهم هنالك يتكونون شيئاً فشيئاً بين الأمل والتثبيط

ولهذا ، وعلى الرغم من أن تونس ليست إلا قطعة صغيرة من شمال افريقية ، فانه يجب أن نتتبع بمنتهى الاهتمام نمايدوزق المجتمع التونسى العقلى ؛ وهو اهتمام يجب أن يقرن بالعطف ، لأن هذا المجتمع هو الذى يحمل أعباء التعقيد وأزمات الضمير ، وما يترتب حتماً على مثل هذا التطور النفسى الهام من أسباب الجزع والاضطراب ؛ ومن هذا المجتمع وحده يمكن أن يأتى حل المسائل الاجتماعية الشائكة التى تعرض للبحث ، وليس من ريب فى أن الموقف الذى يتخذه هذا المجتمع يكون ذا أثر قوى فى باقى أنحاء البلاد

ونستطيع أن نتكهن بشىء من المستقبل ؛ فقد أثبتت الطبقة المتوسطة التونسية إمكان التطور المتناسق فى ظل أفق فرنسى ؛ وقد ظهر فيها مجموعة من الكتاب والمؤرخين والعلماء والصحفيين الذين يكتبون بالفرنسية ؛ ونجد حتى فى ظروف الأسرة ، وفى الظروف الاجتماعية ، ما يدل على تسرب الحياة الحديثة بقوة ، وهى حركة اختيارية لأنها تسير حرة دون ضغط ما ، وبعد تأمل عميق

ونستطيع أيضاً أن نقرأ فى أمثلة يقدمها لنا الماضى مبلغ التعاون بين المسلمين والنصارى ، فعلى مقربة من تونس وقعت الحالة الأولى والوحيدة فى العصر الحديث للتعاون بين هؤلاء وأولئك ؛ ومن الغريب أن ممثلى هذه التجربة العظيمة كانوا فرنسيين وتونسيين ؛ فى مملكة النورمان الصقلية التى يعمرها سلالة الفاتحين الأغالبة ، ازدهرت أعظم حضارة فى العصر ، واشترك فى إنشائها النورمان والمسلمون ، وكانت بالرم يومئذ هى أعظم مجمع بين الشرق والغرب ؛ وكان نجاح هذا التعاون الحر الذى تطاول زهاء قرن ، أشنع فضيحة فى العصر ، فى نظر المتعصبين من الجانبين

وقد استطاعت العبقرية الفرنسية أن تنسى فى العصور الوسطى مجماً شديد التناقض من حضارتين خصيمتين فى كل مكان ؛ واليوم إذ نستعرض ذلك المركز الذى حققته لنا تونس القديمة ، نجد أمامنا جامعة الزيتونة الموقرة — وهى قديمة قدم السوربون — ذات الحنايا الرمزية الجليلة ، تحيط بها حوانيت الكتب والعطور ؛ ثم نجد مكتبة عظيمة فرنسية على الأخص ، أقيمت فى قصر قديم ؛ ثم نجد بعد ذلك فوق مرتفع يشرف على المدينة كلية الصادق الواسعة التى أخرجت نخبة مختارة من المثقفين العرب ؛ الذين استقوا أيضاً من الثقافة الفرنسية . وعندئذ نتذكر تلك المقدمة التى يهدى فيها الشريف الأدريسى أثره الجغرافى الخالد الى الملك رجار (روجر) الذى عاش الأدريسى فى بلاطه ، والتى تبدو فيها ألوان هذا التعاون الذى قام بينهما

هذه كلها أدلة مادية على قيام تعاون عقلى واضح تقوم به الصفوة ، وإنه ليقع على عاتق المفكرين والجامعة أن يخلقوا تلك البيئة التى تتطور فيها عادة الحيلة المشتركة ، إلى رغبة فى الحياة المشتركة

جاستون بوتول

(الرسالة) ترجمنا هذا المقال ليطلع قراؤنا على رأى العلماء الفرنسيين فى الحركة العقلية فى شمال أفريقية ؛ ولسنا نوافق الأستاذ بوتول على بعض آرائه ، وعلى الأخص فى أثر الثقافة الفرنسية فى تونس . والمقصود بشمال أفريقية فى هذا المقال هو البلاد الغربية التى تسيطر عليها فرنسا ؛ أعنى تونس والجزائر والمغرب الأقصى . فانمن المعلوم أن مصر لا تدخل تحت هذه التسمية ، ولم ينصرف اليها هذا التعبير فى أى عصر من العصور